عظماء قهروا اليأس

جمال الدين الأفغانى

يوسف الحمادى

YP
297
A257
m



عظماء قهروا اليأس

باعث النهضة الحديثة فى العالم الإسلامى

جمال الدين الأفغانى

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)
طفولة جمال الدين الأفغانى وصفاته

أسهب(١) تاريخُ النَهضةِ الإسلاميةِ المعاصرةِ فى الحديثِ عن جمالِ الدينِ الأفغانىِّ ، فتركَ لنا من أخبارِه فى كبَرِه ثروةً هائلةً ، حفَلت بها الصحفُ والمجلاتُ ، وتناولتها الكتبُ والدراساتُ والمؤلفاتُ المنوعةُ المتعددة .

ولكن هذا التاريخَ مرَّ بطفولتِه مرًّا عابراً ، فلم يلتفتْ إليها طويلًا ، ولم يقف بنا عندَها وِقفةً متأنيةً ؛ ليحدثَنا عن قصتِها ، أو يحكىَ لنا أحداثَها ، أو يضعَ أيديَنا على ما كان فيها من لهوٍ ومرحٍ أو جدٍّ وكبْتٍ ، ومن حنانٍ لينٍ رقيقٍ أو قسوةٍ خشنةٍ جافية(٢) ، كما أنه لم يقفْ بنا وِقفةً متأنيةً عند أبيه وشخصيتِه ، وأمِّه وطبيعتِها ، ورفقاءِ طفولتِه بما كان لهم من أخلاقٍ واتجاهاتٍ مختلفة .

وكان المنتظرُ أن يُطيلَ من كتبوا عنه فى الحديثِ عن هذه الطفولةِ ، ولكن يبدو أن عظمتَه فى كبرِه شغلتهم عنه فى صغرِه ، كما كان المنتظرُ أن يرجعَ هو بنا إليها فى الحينِ بعد الحينِ ؛ لأن ملاعبَ الطفولة ومسارحَها غاليةٌ عندَ صاحبِها ، ولأنه كان معروفاً بذهنِه الواعى ، وذاكرتِه الحديديةِ التى تحتفظُ بأدقِّ الصورِ ، وأخفى الذكريات ، لكن لعلَّه لما شغَلَ نفسَه أو شغَلَته الحياةُ بعظائِمِ الأمور تناسى هذه المرحلةَ من عمرِه ، وجعلها من شئونِه الخاصَّةِ ، يرجعُ إليها عندما يشاءُ أو تشاء له دواعى حياتِه .

وأوضح ما يعرفُ التاريخُ من أخبارِ هذه الطفولة ، أنه من جيلِ القرنِ التاسعَ عشَر ، وأنه وُلِدَ سنةَ ١٢٥٤ من الهجرة ، وهى توافِقُ سنةَ ألِف وثمانمائةِ

(١) أسهب : أطال .
(٢) جافية : خشنة .

وتسعٍ وثلاثين من الميلاد ، وأن مولدَهُ قريةُ « سعد اباد » ، إحدى القرى الصغيرةِ التى تحُفُّ بضاحيةٍ من ضواحي « كابُل » عاصمةِ « أفغانستان » ، وأن أباه يسمَّى « صفدر » ، وأن أسرتَه من الأسرِ المعروفةِ فى وطنِه ؛ لعراقتِها(١) من ناحيةٍ ، ولأنها كانت تتولَّى الحكمَ فى بعضِ البلادِ من ناحيةٍ ثانية ، ولأنها ، بعد ذلك ، تنتسبُ إلى آلِ البيتِ النبويِّ ، وتتصلُ سلسلةُ نسبِها ، كما يذكرُ من أرَّخوا لها ، بالحسَنِ بن فاطمةَ الزهراءِ بنتِ الرسولِ ﷺ . ومما ذكروه عن هذه الأسرةِ أيضا أنها لم تنعَمْ فى أرضِها بالهدوءِ والاستقرارِ ؛ لأنها — فيما يبدو — لم تكن راضيةً عن الحكم فى أفغانستان على عهدها ، ودخلَت فى الصراع الدائر بينه وبين المناهضين له ، فانقلبَ عليها الملكُ محمد خان ، وانتزعها من أراضِيها ، وأرغمها على الانتقالِ إلى العاصمة « كابُل » ؛ لتَتِيهَ فيها ، وتبتعدَ عن جذورِها وشعبيتِها فى البلاد التى كانت تحكمُها .

وبالرغم من قلةِ ما رواه المؤرخون عن طفولةِ جمال الدينِ ، فتحوا لنا نافذةً يمكنُ أن نُطلَّ منها على حياتِه الباكرةِ ، فنعرفَ صورتَها العامَّةَ ، وإنْ لمْ نعرفْ دقائقَها وتفاصيلَها ؛ فمما رأيناه من خلالِ هذه النافذةِ أنه فتح عينيه على أبوين من أسرةٍ عريقةٍ ، شريفةِ النسب ، وأنه حبا ، ثم درجَ ، ثم مشى وتنقَّلَ هنا وهناكَ فى قريتِه « سعد اباد » ، ومظاهرُ السيادةِ والعزةِ تحيطُ به وبأسرتِه من ناحيةٍ ، وجوُّ الصراعِ بينها وبين الملكِ محمد خان يغشى(٢) حياتَه وحياتَها من ناحيةٍ أخرى ؛ ولهذا نما وشبَّ وهذه العواملُ من أهمِّ ما أثَّر فيه ، ومن أقوى ما شكَّل صفاتِه وسلوكَه ؛ فهو عزيزٌ من عزةِ أبويه وأسرتِه ، مترفعٌ من ترفعِ أهلِه وعشيرتِه ، طيبُ القلبِ من طيبةِ الريفِ الأفغانيِّ الذى نشأ فيه ، وامتزج ترابُه بدمِه ، وهو صلبٌ من صلابةِ هذا الريفِ ، عنيدٌ من عنادِه ، لا يعرفُ فى تحدِّيه

---

(١) عراقتها : أصالتها وقدم تاريخها . (٢) يغشى : يغطى .

الملاينةَ أو المهادنةَ أو الاستسلامَ ، ولا يحنى هامتَه لمن يعتدى عليه ، أو يرفعُ رأسَه فوقَ رأسِه .

ويبدو أن وراثتَه وبيئتَه وحياتَه الباكرةَ هى التى تركت فيه أيضاً مجموعةً من الصفاتِ ، يظنُّ من يلمحُها فيه أنها متضاربةٌ متناقضةٌ ، وهى فى حقيقتِها أبعدُ ما تكونُ عن التضاربِ والتناقض ؛ فهو لينٌ سمحٌ هادئ الطبيعة ، وهو عنيفٌ حادٌّ دمويُّ المِزاجِ ، لكن لينَه وسماحتَه وهدوءَ طبعِه لعامةِ الناس ، ولكلِّ إنسانٍ لا يعتدى عليه ، أما عنفُه وحدَّتُه ودمويةُ مِزاجِه فعلى أىِّ شخصٍ يمَسُّ دينَه أو أمَّتَه أو كرامتَه ، وهو متواضعٌ غايةَ التواضعِ مُتعالٍ غايةَ التعالِى ، لكن تواضعَه لأمثالِه ومن هم دونَه ، أما ترفُّعُه فعلى الطغاةِ(١) من الأمراءِ والحكامِ وأصحابِ الغطرسةِ(٢) الزائفةِ الذين يعاملون الفلاحينَ وأبناءَ الطبقةِ الدنيا معاملةَ السادةِ للعبيد ، وهو سليمُ الصدرِ رقيقٌ قريبٌ ، كالطفلِ الوديعِ مع من يلتفون به ويتعاملون معه ، حَانقٌ بعيدٌ عميقٌ ، كالجملِ العقورِ(٣) مع من جرحه أو أساء إليه ، ثم هو فى أكثرِ حالاتِه أدنى(٤) إلى الفقرِ والحاجة ، ولكنه فى كلِّ حالاتِه سخىٌّ كريمٌ ، يجودُ بما فى يده ، ويعطى من غيرِ حساب ؛ لأنه عظيمُ الثقةِ بنفسِه ، عظيمُ التوكلِ على ربِّه ، موقنٌ أنه تعالَى معه ولن يضيِّعَه .

على هذه الصورةِ كان جمالُ الدِّينِ الأفغانىُّ من ناحيةِ طبيعتِه وأخلاقِه .. أما صفاتُه الجسميةُ فكان فيها متميِّزاً منذُ طفولتِه وعلى مَدَى حياتِه ... كان طفلًا أفغانىَّ المولدِ والبيئةِ ، ولكن عروقَ أجدادِه القدماء من العربِ شدَّتْه إليهم ، كما يقولُ من كتبوا عنه ، فكان شبيهاً ، فى ملامحِه الجسميةِ العامةِ وغيرِ الخاصةِ ، بأكثرِ أطفالِ الحجاز .. كان قمحىَّ اللَّونِ ، متوسطَ البنيةِ والقامةِ ،

(١) الطغاة : جمع طاغ ، وهو الذى يتجاوز الحد فى ظلمه . (٢) الغطرسة : الزهو والتكبر .
(٣) العقور : الذى يكثر من العض . (٤) أدنى : أفقر .

كبيرَ الرأس ، عريضَ الجبهةِ ، بارزَ الوَجنَتين[١] ، واسعَ العينين ، عظيمَ الأحداقِ ، نشيطَ الحركةِ ، شديدَ الحيويةِ ، له نظراتٌ حادةٌ عميقةٌ تشعُّ بالهيبةِ والجلال ... أما صفاتُه العقليةُ فقد أجمعَ كلُّ من تحدثوا عنه أنه كان بارعاً فى ذكائِه ، يفهمُ أكثرَ مما يفهمُ أمثالُه ، سريعاً فى بديهتِه ، يلتقطُ الغامضَ والخفىَّ والبعيدَ فى لمح البصر ، وقبلَ أن يلتقطَها غيرُه ، قويًّا فى ذاكرتِه ، يستطيعُ أن يستعيدَ بها من غيرِ جهدٍ ما لا يستطيعُ غيرُه استعادتَه مع المعاناة وكدِّ الذهن .

وقد حددت هذه الملامحُ والصفاتُ شخصيةَ الأفغانىِّ ، وساعدته فى رحلةِ حياتِه التى هزت الشرقَ ، وكان لها أعظمُ الأثر فى يقَظةِ الأمةِ الإسلامية ، ونهضتِها الحاضرة .

---

(١) الوجنتين : الوجنة الخد .

(٢)

دراسته

درس جمالُ الدين كما يدرسُ أمثالُه من أبناءِ الأفغانِ ، ولكن كان من الطبيعيِّ أن يفوقَ أندادَه ، ويتميزَ منهم بقدراتِه ومواهبِه ، فيسبقَهم بمدًى بعيدٍ .

ويبدو أنه ذهبَ إلى الكتابِ كما يذهبون ، وتعلمَ على أيدى شيوخِه كما يتعلمون ، فحفِظَ القرآنَ ، وتعلَّمَ القراءَةَ والكتابةَ ، ودرسَ مبادئ الخطِّ والإملاءِ والحساب ... وكان أذكى وأحفظَ من غيره ، فحصَّل ووعى ما يعزُّ على زملائه أن يحصِّلوه أو يَعوه .

وانتقل به أبوه وأسرتُه إلى « كابُل » ، فهيأت له هذه الانتقالةُ أن يدفعَ بابنِه إلى متابعةِ دراستِه ؛ لأن كلَّ العواملِ التى تساعدُ عليها قد تجمعت له .. فابنُه فريدٌ فى ذكائِه وحافظتِه وذاكرتِه ، وهو فى مستوًى كريمٍ من النعمةِ واليسار ، وفى « كابُل » من المؤسساتِ التعليميةِ ما ليسَ فى غيرِها من بلاد الأفغان .

ولم يُبطئ الأبُ أو يتردَّدْ فى اختيارِ الطريقِ لابنه ، بل اتجه به الاتجاهَ الإسلاميَّ الذى يسايرُ نسبَ الأسرةِ ، ويظفرُ أصحابُه بالاحترامِ والتقديرِ فى المجتمعِ الأفغانى .. ولاءم هذا الاتجاهُ الصبىَّ الناشئ ، فأقبل على العلومِ الإسلاميةِ فى حماسةٍ وعن رغبةٍ وشغفٍ[1] ، كأنه يلتهمُها[2] التهاماً .. وكان مما درسه منها العلوم « اللسانية » ؛ كالنحوِ والصرفِ واللغةِ والبيانِ والمعانِى والبديع ، والعلومُ الشرعيةُ ؛ كالتفسيرِ والحديثِ والفقهِ والأصول ، وعلومُ العقيدةِ ؛ كالتوحيدِ أو الكلامِ والتَّصوفِ ، والعلومُ العقليةُ ؛ كالمنطقِ والفلسفةِ

---

(١) شغف : رغبة شديدة .　　(٢) يلتهمها : يبتلعها بنهم .

النظريةِ التى تبحثُ فى الطبيعياتِ والإلَهياتِ ، والفلسفةِ العمليةِ التى تدورُ حولَ السياسةِ والأخلاق ؛ وزادَ فدرسَ العلومَ الرياضيةَ والفلكيةَ ، وألَمَّ ببعضِ النظرياتِ فى الطِّبِّ والتشريح .

وكلٌّ من كتبوا عنه متفقون على أنه حقَّقَ امتيازاً فريداً فى هذه الدراسة ، سواءٌ من ناحيةِ اتساعِها وعمقِها ودقتِها ، أم من ناحيةِ صفائِها وبعدِها عن التمزُّقِ والاختلاطِ والاضطرابِ ؛ حتى قلَّ أن وجدوا مثيلًا له فى سنِّه ودراستِه نبغَ نبوغَه ، وحتى قرروا أنه كان يحاولُ الصعودَ فى سُلَّمِها إلى أعلى الدرجاتِ ؛ ليكونَ كالأفذاذِ من علماءِ الإسلامِ النابغين أمثالِ ابنِ سينا[١] وابنِ رُشد[٢] .

وتلفتت دنيا الأفغانىِّ لترى الطفلَ الذى وُلِدَ فى قرية « سعد اباد » سنةَ ألفٍ وثمانمائةٍ وتسعٍ وثلاثينَ من البلادِ قد اجتاز فى « كابُل » طورَ الصِّبا ، ودخلَ مرحلةَ الشباب ، وصار فى نحو الثامنةَ عشرةَ من عمرِهِ .. ولتراه يتنقَّلُ هنا وهناك فى العاصمةِ الكبيرة بجبَّتِه ، وكسائِه الواسع ، وعمامتِه الخضراءِ العجراء[٣] ، يتلمسُ لنفسِه مكاناً فى المجتمع ، ملائماً لعلمِه ونشاطِه وقدراتِه ، وما حقق من نجاحٍ فى تلك السنِّ الباكرةِ ، التى كان فيها أشبهَ بنجمٍ ، ظهرَ فى السماءِ لامعاً متألِّقاً[٤] ، فى غير وقتِه ، وعلى غيرِ انتظارٍ ، فلم تتعلقْ عيونُ الناسِ به .

وفكر الأفغانىُّ ، ولكن لم يَطُلْ به التفكير ..

أخذ يتدبرُ أمرَه ، ويحاولُ أن يحددَ خُطتَه بعد أن أتمَّ دراستَه ، ولعله تأهَّبَ[٥] ليخطوَ خطوتَه الأولى على طريقِ الحياةِ العملية فى بلادِه ، وكان فرِحاً

---

(١) ابن سينا : من فلاسفة المسلمين فى العصر العباسى الثانى ، توفى سنة ٤٢٨ هـ .

(٢) ابن رشد : من فلاسفة المسلمين فى الأندلس ، توفى سنة ٥٩٥ هـ .

(٣) العجراء : الكبيرة الملفوفة على رأسه .

(٤) متألقا : متلألئا لامعا . (٥) تأهب : استعد .



الأفغانى وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره

مزهوًّا بنفسِه وقدراتِه .. ولكنه اصطدم صدمةً أيقظته ؛ فقد أدركَ أن عشيرتَه ليست من العشائرِ المرضيِّ عنها من الأسرةِ الحاكمةِ فى وطنِه ، وأنه ربما لا يظفرُ فى ظلِّها بمنصبٍ قطُّ ، وإن ظفِرَ بشيءٍ من ذلك فأغلب الظنِّ أنه لن يوضعَ فى موقعٍ كريمٍ .. عند ذاك تحولَ عن هذا التفكير ، وبدا له أن يدعَمَ دراستَه برحلةٍ تزيدُها قوةً واكتمالًا ، شأنَ علماءِ الإسلامِ الذين اتخذوا الرحلةَ وسيلةً من وسائلِ البحثِ عن المعرفةِ والاستزادةِ من العلمِ .

وعرف أن العلومَ الرياضيةَ تدرَسُ فى الهندِ بأساليبَ عصريةٍ ، لم تتهيَّأْ له ، ففكر أن يذهبَ إليها لدراسةِ هذه العلومِ بها ، ولمعرفةِ أحوالِ المسلمين فيها ، بعد أن خادعَ الإنجليزُ أهلَها ، فاحتلُّوها ، واستغلُّوا خيراتِها .. ونفذَ الأفغانىُّ فكرتَه ، فارتحلَ إلى الهندِ ، وأقامَ بها سنةً وبعضَ السنة .

وفى هذه الفترةِ حقق ما أرادَ من الدراسةِ ، وتعرف ببعضِ علماءِ الهنودِ ، ورأى بعينِه ما يصنعُ الاستعمارُ الإنجليزىُّ بالشعب الذى يستعمرُه ، وبالمسلمين من أبنائِه قبلَ غيرِهم .. ورجعَ إلى بلادِه ، فراحَ يتأملُ دنيا الإسلامِ حولَه ، فماذا وجد ؟ وجد الهندَ تئنُّ تحت ضغط الاستعمارِ الإنجليزىِّ ، ووجدَ بلادَه تئنُّ تحتَ ضغطِ الملوكِ العتاةِ(١) المستبدين ، وعرف مما سمِع وقرأ أن العالَم الإسلامىَّ على عهدِه يعيش فى ذلةٍ لا صِلةَ لها بالعزةِ التى يتحدثُ عنها الإسلامُ ، ولا بالمكانةِ التى يريدُها لأبنائِه .

ولعله فى هذه المرةِ بدأ يطيلُ التفكيرَ فى حال الأمة المحمدية ، فحزن أشدَّ الحزن لما ألَمَّ بها(٢) .. لقد انحسرت(٣) عنها الأضواءُ ، فتحولت من النورِ إلى الظلمة ، وتفرق أبناؤُها ، فصار أمرُها إلى الضعف بعد القوة ، وألقت من يدِها

(١) العتاة : المتجبرين . (٢) ألم بها : نزل بها .
(٣) انحسرت : ذهبت وتراجعت .

الرايةَ التى كانت تقودُ الدنيا بها ، فأصبحت فى الساقة وقد كانت فى المقدِّمة .
عند ذلك حزَّ الألمُ فى قلبه ، وتأججت نارُ الغضبِ فى صدرِه ، وعنَّ له أن يستكملَ جوانبَ الصورةِ ، بدراسةِ حالِ المسلمين فى الحجاز ، مشرِقِ الدعوةِ الإسلامية ، ومنزِلِ الوحيِ بها ، ومهدِها الأول ، وأن يستكملَ ، مع ذلك ، أركانَ دينِه بالحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرام .

وفى بلادِ الحجازِ ألفى ما هو أشدُّ من التخلف ، ولكنه ألفى به دعوةً حازمةً متشددةً للإمام محمدِ بنِ عبد الوهاب ، تنادى بالعودةِ إلى مبادئِ الإسلامِ الصافيةِ الخالصةِ ، ونبْذِ[1] كلِّ ما شابَهُ من الأوهامِ والخرافات .. فأدَّى فريضةَ الحجِّ ، ولم يعجِّل بالرحيلِ ، بل لبِثَ سنةً ، ينتقلُ فى البلادِ المقدسةِ ، ويدرسُ هذه الدعوةَ ، حتى أحاطَ بأبعادِها ، وأفادَ منها فى جهادِه وحركتِه الإصلاحيةِ التى عاهد ربه ونفسَه على النهوضِ بها .

(١) نبذ : ترك .

(٣)

محاولاته فى وطنه وفى الهند

أدى الأفغانىُّ فريضةَ الحج ، وعرف أبعادَ الدعوةِ الوهَّابية ، وفكرَ فى العودة إلى بلادِه ، ولكنه لم يكن مطمئنًّا إلى الحياةِ فى ظلِّ ملوكها ؛ ولهذا أبطأ وترددَ ، وراح يسألُ نفسَه : أين السبيل ؟

عندئذ علِمَ أن الحكمَ فيها قد تحولَ إلى ملِكٍ جديدٍ ، هو « دوست » محمد خان ، وكان الأفغانىُّ يعرفُه ، ويرضى عن نزعاتِه واتجاهاتِه ، فرجع إلى بلاده ، وتقلدَ(١) بعضَ الوظائِف فيها ، وقضى أعواماً من حياته مع هذا الملكِ ، يعملُ ، ما استطاع ، على أن يوجِّهَ حُكمَه إلى خير وطنه ، وبلغ من صلتِه به ، أنه خرجَ معه للحرب فى « هراة » إحدى بلاد خراسان ، فشهِد حصارَها معه ، ولم يرجعْ عنها إلا بعد موتِه ، ولكن الحصارَ استمرَّ حتى فتحت .

وبينما كان الأفغانىُّ سعيداً بالعملِ معه ، إذ اصطدم برحيلِه وانتقالِ الأمرِ إلى ملكٍ آخرَ ، لا يصلحُ له ، ولا يقوى على حملِ أمانتِه ، هو شير على خان ... كان هذا الملكُ ضعيفاً ، ضيقَ الأفقِ ، يشكُّ فى نوايا إخوتِه وموقفِهم منه ومن حكمِه ، فدخل معهم فى صراعٍ ، فتح الأبوابَ للفتنِ والدسائِس والمعاركِ الداميةِ بينهم فى الداخل ، كما فتح النوافذَ من الخارج لتسللِ إنجلترا منها ؛ لأنه استعان بها لتناصرَه عليهم ، غير أنه أخفق(٢) وهُزِمَ ، وكان جمال الدين الأفغانىُّ فى جانبِ الأخِ الذى هزمَه ، وهو محمد أعظم خان .

كان محمد أعظم خان عاقلًا ، وكان معه جمالُ الدين بحكمته ، فترك

---

(١) تقلد : تولى . (٢) أخفق : لم ينجح .

العرشَ لأخٍ له أحقَّ به منه ، فأكبرهُ الناسُ ، وقدروه ، وأكبرَه أخوه وقدرَه ، وكان فى عهدِه نافذَ الكلمةِ ، عظيمَ السلطانِ ، كأنه الملكُ غيرُ المتوج ، كما أن الأفغانىَّ احتلَّ منزلةً كريمةً فى النفوسِ ، لشعبيتِه وحبِّ الناسِ له ، وصلتِه بالملك الجديد .

ومات هذا الملك ، فتحول الحكمُ إلى صديقِ جمالِ الدين ، محمد أعظم خان ، وبهذا التحولِ مرت فترةٌ فى حياةِ أفغانستان ، ظلت بضعَ سنوات ، وتفتح فيها الجوُّ للعمل الوطنىِّ ، فشهدت عهداً جادًّا من الهدوءِ والاستقرار ، ومحاولاتِ الإصلاحِ التى كان يدفعُ إليها جمالُ الدين ، ويتبناها صديقُه محمد أعظم خان .

وبينما تمضى أفغانستانُ فى طريقِها الصحيح إذ تغيرت الدنيا ، ورجع المُلكُ لشير على خان ، بمساعدة الإنجليز الذين أعانوه على الوصولِ إليه ، سنة ١٨٦٩ من الميلاد .

* * *

كان لا بدَّ لجمال الدين أن يغادرَ البلادَ ، وبأقصى سرعةٍ ؛ حتَّى لا يتعرضَ للعذابِ أو الموتِ على يد شير على خان . ولكن كيف يغادرُها ؟ وأين يتجهُ ؟ أعلن أنه ذاهبٌ إلى الحجِّ ، وسارع بالرحيلِ إلى الهند ؛ ليُبْحِرَ منها إلى الحجاز . وفى الهندِ لقيه الإنجليزُ ، فرحبوا به وبخروجِه من أفغانستان ، وفى الوقتِ نفسِه وضعوه تحتَ أعينِهم ؛ ليعرفوا كلَّ حركاتِه وسكناتِه ، وليعجِّلوا بإخراجِه منها وترحيلِه عنها .

وفى هذه المرةِ لم يستقرَّ الشيخُ بالهندِ أكثرَ من شهر ، ولكنه ، مع قِصَرِ الوقتِ الذى أقامه بها ، استطاع أن يفعلَ شيئاً عظيماً ؛ فقد انطلقَ يذكِّرُ أهلَها مأساةَ الاستعمارِ الإنجليزى ، وما جرَّ على بلدِهم الكبيرِ من عارِ الاستعبادِ

والاستغلالِ والضياع ؛ حتى صحَوْا على واقعِهم الأليم ، ووقفوا بين يدى الشيخِ وأعينهم تفيضُ من الدمعِ[١] ، ولكنه نظرَ إليهم ، وقال :

« اعلموا أن البكاءَ للنساء ... ولا حياةَ لقومٍ لا يستقبلونَ الموت ، فى سبيلِ الاستقلال ، بثغرٍ باسم » .

ورأى الإنجليزُ ما صنع الرجلُ ، فالتقطوه ، ووضعوه بكلِّ كِياسةٍ[٢] ، على ظهرِ سفينةٍ ، تبعُدُ به عن الهندِ التى حاول إثارةَ شعبِها عليهم ، وعن أفغانستانَ التى فتحت نوافذَها لهم ، وعن إيرانَ التى لجأ إليها محمد أعظم خان صديقُ الشيخ .

وردَّدَ الشيخُ بصرَه بين السماءِ والبحر ، وفكر ثم فكر ، فقرَّ فى ذهنِه أن حياةَ الدويلاتِ الإسلاميةِ الممزقةِ لا تتسنَّى بغير تعليمِ شعوبها ، وتوعيتِهم بحقوقِهم ؛ ليناضلوا فى سبيلِها حتى ينتزعوها من براثنِ[٣] الحكام الطغاة ، وحتى يحافظوا عليها متى قدِّرَ لهم أن يظفروا بها .

---

(١) تفيض من الدمع : تسكبه بغزارة .　　(٢) كياسة : تعقل .

(٣) براثن : مخالب .



الأفغانى على ظهر إحدى السفن فى البحر
وعلى مقربة منه بعض الإنجليز يراقبونه

(٤)

آراؤه فى الإصلاح

كان الأفغانىُّ مسلماً ، متفتحاً ، كبيرَ القلب ، عالىَ الهمة ، يدفعُه طموحُه إلى الغاياتِ البعيدةِ ، التى تتقطعُ دونَها الآمالُ والظنون ... فلو أن فرداً تقدَّم لإصلاحِ عشيرةٍ ما ، ونجح فى محاولتِه لقِيل إنه قوىُّ الإرادة ، فإذا اتجه إلى إصلاحِ أمةٍ ، واستطاع أن يحقِّقَ ما اتجهَ إليه — وصفه الناس بالعظمةِ والريادةِ والزعامة ، فلو ادعى أنه سينهضُ بإصلاحِ عالَمٍ فسيحٍ ، رحيبٍ ، يمتدُّ من أقصى الشرقِ إلى أقصى الغربِ — لاستعجب الناسُ وقالوا عنه إنه خيالىٌّ ، يسبحُ فى دنيا الخيالِ والأوهام ، ولا صلةَ له بدنيا الناسِ ، ولا الواقعِ الذى يعيشون فيه .. ولكن جمالَ الدين الأفغانىَّ حققَ هذه المعجزةَ ، فتطلعَ إلى إصلاحِ العالم الإسلامىِّ ، وشفعَ(١) هذا التطلُّعَ ، بتحديدِ خطتِه ، ووسائلِه ، ثم خطا خطواتٍ واسعةً على طريقِ العملِ والتنفيذ .

بدأ ، فجعل من نفسِه طبيباً يعالجُ مريضاً ، ولم يكن المريضُ الذى يعالجه شخصاً ، أو أشخاصاً ، وإنما كان الأمةَ الإسلاميةَ كلَّها ، وفى كلِّ موقعٍ من مواقعِها .. وأخذ يفحصُ عن داءِ هذه الأمةِ أو أدوائِها(٢) ، فتبينَ له أن هذه الأدواءَ تكمنُ فى ناحيتين : الأولى شتاتُ هذه الأمة ، وتمزُّقُها ، وفِقدانُ الوحدةِ بين بلادِها . والثانيةُ ما أصيبت به من فقرٍ وجهلٍ وتخلفٍ ، على حينَ نهضت أُورُبَّةُ ، وخرجت من ظلامِ العصورِ الوسطى إلى نورِ العلمِ وميادينِ الاختراعِ والتقدم — وعاد فبحثَ هاتين الناحيتين فى وطنِه أفغانستانَ ، وفى البلادِ التى

(١) شفع : شفعه به ضمه إليه . (٢) أدوائها : أمراضها .

زارَها مثل الهندِ والجزيرةِ العربية ، وهى الأقطارِ التى سمِع أو قرأ عنها كسائرِ بلاد الخلافةِ الإسلامية فى تركيا وغيرِها ، فوجدَها جميعاً فى فرقةٍ وتخلف .. ولعله لم يملك نفسَه من الحزنِ ، ولا عينيه من الدموعِ ، وهو يجول بخيالِه بين حاضرِ هذه الأمةِ بظلامِه وآلامَه وماضيها بإشراقِه وبهجتِه .. لقد رأى أمةً تمزقت بعد وحدة ، وضعُفَت بعد عزة ، وتأخرت بعد سَبْق ، وألقت رايةَ القيادةِ لغيرها بعد أن كانت بيدِها ، وبلغ بها التخاذُل درجةً دفعت الاستعمارَ الغربىَّ إلى الطمعِ فى أراضيها والعدوانِ عليها .. وكم عزَّ عليه أن يوازنَ بين هذه الصورةِ القاتمةِ ، وصورةِ الخليفةِ العباسىِّ هارونَ الرشيد ، وهو ينظرُ إلى إحدى السحبِ المارةِ به ، ويخاطبُها بقوله :

« أيتها السحابةُ ! اذهبى حيث شئتِ ؛ فإن خراجَك راجعٌ إلىَّ ! » .

* * *

انتقلَ الشيخُ من تحديدِ أدواءِ هذه الأمة إلى تصدير العلاج ، فوضح له ، من تجارِبه ومشاهداتِه فى أفغانستانَ والهندِ والجزيرة ، ومن معلوماتِه عن غيرها .. أن هذا الإصلاحَ لا يتمُّ بإقالةِ(١) حكومةٍ وإقامةِ أخرى ، ولا بإزاحةِ حاكمٍ واستبدالِه بغيره ، ولا بإزالةِ نظامٍ من نظُمِ الحكم ووضعِ غيرِه مكانَه ، وإنما يتمُّ بتعليمِ الفرد ، وتنميةِ عقلِه وحِسِّه ، وتوعيتِه بتعاليمِ دينِه ، وما يفرضُ له من حقوقٍ ويفرضُ عليه من واجبات .

ثم انتقل من وصفةِ العلاجِ إلى تحديد أُسُسِه ، فرأى أن تعليمَ الفرد وتثقيفَه يتطلبان ما لا حدودَ له من الفكرِ والجهدِ والوقتِ والمالِ ، ورفعَ بصرَه فوجدَ أنه من هذه أمام جَبلٍ شامخٍ(٢) ، فخشِيَ أن يضعُفَ ، أو ييئسَ أو يتخاذلَ ...

---

(١) إقالة : عزل .　　(٢) شامخ : مرتفع .

ورجع إلى نفسه ، فاطمأن إلى مواهِبِه وقدراتِه ، وأدرك أنه يستطيعُ أن يقدِّمَ لأمته الشيءَ الكثيرَ ، بفكرِه وروحِه ولسانِه وقلمِه ونشاطِه الدائبِ المتصل ، كما يستطيعُ أن يجتذبَ إليه من يصنعون صُنعَه ، ويسيرون على دربِه[١] ؛ وذلك بتجميع القُوَى التى تحركُ هذه الأمةَ ، وتدفعُها إلى العملِ والكفاح ، ولم يتردَّدْ ، أو يتريثْ[٢] ، بل صحَّ منه العزمُ ، وامتلأ ثقةً بالله ويقيناً بأنه لن يضيعَه .

---

(١) دربه : طريقه .
(٢) يتريث : يبطئ

(٥)

وسائله فى نشر دعوته

استعان الأفغانىُّ على نشرِ دعوتِه بوسائلَ متعددة .

وكان هو وسيلةَ هذه الوسائلِ ، ومحورَها ، وقطبَها الذى تدورُ حوله ؛ فقد تعددت وسائلُه وتنوعتْ ، وتفرعت ما تفرعت ، ولكنها كانت ، فى كلِّ حالٍ ، تلتفُّ به ، وتستمدُّ وحيَها منه . ولعل من أهم وسائله فيها :

تفريغ نفسه :

فقد أخلص لها نفسَه ؛ فلم يشغلْها بالمالِ وجمعِه وتثميرِه ، ولم يقيدْها بقيودِ الزواجِ ، أو تكوينِ الأسرةِ ، أو تربيةِ الأولادِ ، ولم يوجهها إلى متعِ الحياةِ وزينتِها ومباهجِها .. ولم يزد ما حمَّلَها إياه على ثيابِه وكتبِه ، ولم تزد ثيابُه على ما يلبَسُه ، كما لم تزدْ كتبُه على ما وعى صدرُه من معارفِها وحقائِقِها ... حدث أن السلطانَ عبدَ الحميد خليفةَ المسلمين أراد أن يجتذبَه إلى الآستانةِ عاصمةِ الخلافةِ ؛ حتى يستفيدَ بدعوتِه إلى الوحدةِ الإسلاميةِ ، فدعاه ، ورحَّب به ، وبعثَ بأحدِ رسُلِه ليكونَ فى انتظارِه وفى صحبتِه ، ولقِيَه الرسولُ ، فأحسنَ استقبالَه ، ثم سأله عن الصناديق التى معه ، لتُحمَلَ إلى القصرِ الذى أُعِدَّ لإقامتِه ، فتبسمَ الشيخُ ، وأجابَ فى كلماتٍ فُكاهيَّةٍ مَرِحة كهذه الكلمات :

ـــ أعَنْ صناديقِ الكتُبِ والثِّيابِ تسأل ؟!

قال الرسول :

ـــ نَعَم ، دُلَّنى عليها .

أوماً[١] الشيخ إلى صدرِه ، وقال :

ـــ هنا صناديقُ الكتب !

وحوَّل بصرَه إلى ثيابِه ، وقال :

ـــ أما صناديقُ الثيابِ فعليَّ !

قدرته التعليميةُ :

وكانت قدرةً فذة[٢] ، أعانته عليها غزارةُ مادته ، وتمكُّنُه منها ، وسرعتُه فى استدعائِها ، ومهارتُه فى ربطِ بعضِها ببعضٍ ، وفى توليدِ بعضِها من بعضٍ ، وبراعتُه النادرةُ فى تيسيرِها لمن يتلَقَّوْنَها على يدِه ، سواءٌ أكانوا من خاصَّةِ الناسِ أم كانوا من عامَّةِ الشعبِ ، وقدرتُه ، بعد ذلك كلِّه ، على أن يجتذبَهم جميعاً إليها ، ويستهويَهم لأخذِها عنه .

وقد تنوعت مدارسُه لهم ، فكان منها النظاميةُ التى يُعلِّمُ فيها كتباً معينةً ، فى المنطقِ أو الحكمةِ أو التصوفِ ،أو غيرها ، وكان منها غيرُ النظاميةِ التى تقامُ فى مُقهًى من مقاهيه أو نادٍ من أنديتِه ، وتتناول مختلِفَ المسائل ، من دينٍ أو حكمةٍ أو سياسةٍ أو اقتصادٍ أو اجتماعٍ أو غيرها ، وكان لهذه المدارسِ الحرةِ أعظمُ الأثرِ فى أكثرَ من ناحيةٍ ؛ فقد كشفت عن عظمةِ الشيخِ وأذاعت شهرَتَه ، وأيقظت النفوسَ والعقولَ ، وبثَّتْ فى القلوب روحَ الوطنية ، وكونت طائفةً من الروادِ والمريدينَ الذين يعتنقون مبادئ الشيخِ ، ويعملون على نشرِ دعوتِه ، كما كان من مدارسِه نوعٌ ثالث ، هو المدرسةُ المتنقلةُ ، وكانت تُعقَدُ حيثما يكونُ الشيخ ، فى مسجدٍ ، أو ندوةٍ ، أو محاضرةٍ ، أو زيارةٍ ، أو سهرةٍ ، أو غيرِها ؛ لأنه كان ، فى كلِّ حالٍ ، قادراً

(١) أوماً : أشار .　　(٢) فذة : فريدة .

على العطاءِ ، مستعدًّا للتعليم ، وليس فى حاجةٍ إلى مراجعَ أو قراءات تذكِّره دروسَه .

الصحافة :

وكانت من أهمِّ وسائلِ الإعلامِ بدعوتِه ، وقد تنوعت ، فكان منها الصحفُ التى صدرت فى بلادِ الإسلامِ ، والتى صدرت فى غيرِها ، « كجريدة العروة الوثقى » التى ظهرت فى باريس ، كما كان منها الصحف التى أصدرها مريدوه ، والتى أصدرها مع تلميذه الشيخ محمد عبده ، كالجريدة التى تقدمت الإشارة إليها ، ثم كان منها الصحفُ الوطنيةُ « كجريدة مصر » التى دفع أديبَ إسحاق إلى إصدارِها فى الإسكندرية ، والصحفُ الاقتصاديةُ « كجريدة التجارة » التى أصدرها هذا الصَّحَفِىُّ مع زميلِه سليم نقَّاش بتوجيهٍ من الشيخ ، وكان منها ، بعد ذلك ، الصحفُ الهزليةُ ، كمجلة « أبو نضارة » التى أوحى إلى أحدِ اليهود ، وهو يعقوب صنوع ، بإصدارِها ؛ لنقدِ الخديوِ إسماعيل ، وسلخِ جلدِه .

مقالاته :

وهى خِصبةٌ كثيرةٌ ، منها ما نُشِرَ فى الهندِ ، وما نُشِرَ فى تركيا ، وباريس ، ومصر . وكانت مقالاته ناريةً ، تلفَحُ[1] القلوبَ ، وتُلهِبُ المشاعِرَ ، وتفتحُ العيونَ على مآسِى العالَمِ الإسلامىِّ ، وما يعانِى فى ظلِّ المستعمرِين والحكام المستبدين من عَسفٍ وقهرٍ ، ومن ذلةٍ وكبت ، ومن فقرٍ ومرضٍ وتخلف . . وبهذه المقالاتِ تحولت النفوسُ مراجلَ تغلى ، وتحتدمُ[2] ، وتتحينُ الفرصَ لتنفجرَ فى ثوراتٍ عاتيةٍ عارمة[3] .

(١) تلفح : تلهب . (٢) تحتدم : يشتد حرها . (٣) عارمة : حادة شرسة .

أحاديثُه ومحاوراتُه ومناقشاتُه :

وكان له فيها أسلوبٌ جديدٌ فى عهده ، متدفقٌ ، طليقٌ ، بعيدٌ عن الزخارفِ والقيود ، متميزٌ بروحه التى تجمعُ بين الفكاهةِ والسخريةِ واللذعاتِ التصويريةِ الشبيهةِ بالصدماتِ الكهربيةِ السريعة ... ومن ذلك قولُه عن الهنود :

« هم ملايينُ من البشر ، ولو كانوا ملايينَ من الذبابِ لكان طنينُهم يُصِمُّ آذانَ بريطانيا .. أو أن الله لو مسخهم سلاحفَ ، وخاضُوا(١) البحرَ ، وأحاطوا بالجزُرِ البريطانية ، لجرُّوها إلى قاعِه ، ولعادوا إلى بلادِهم أحراراً » .

وقوله عن إنجلترا :

« إنها لو استطاعت أن تُخرِجَ قوماً من المسلمين من أرضِهم لتستبدِلَ بهم غيرَهم ـــ لفعلت » .

وقولُه يخاطبُ المصريين ، وينتقدُ خضوعَهم للإنجليز وأذنابهم :

« لو كان فى عروقكم دمٌ ، وفى رءوسكم أعصابٌ تتأثر ، فتثيرُ النخوة(٢) والحميةَ ـــ لما رضيتم بهذا الذلِّ ، ولما قعدتم على الرمضاءِ وأنتم ضاحكون » .

لقاءاته بقادة الدول :

وقد تعددت هذه اللقاءاتُ ، وكانت من وسائِله فى تنبيه القادة وتحذيرِهم أن يغتصبُوا حقوقَ الشعوبِ ، فى الحريةِ ، والكرامةِ ، والحياةِ النيابيةِ الصحيحة ... وذلك بعد أن دخلَ دنيا السياسة ، وعدَّل آراءه ،

---

(١) خاضوا البحر : دخلوا فى مائه . (٢) النخوة والحمية : العظمة وإباء الذل .

فلم يكتفِ بالدعوة إلى تعليمِ الشعوب ، بل ضم إليها الدعوةَ إلى نبذِ الحكمِ الاستبداديِّ الذى عصفَ بها ، وكتمَ أنفاسَها ووقفَ عقبةً فى سبيلِ نهضتِها وتقدُّمِها .

وكان فى لقاءاتِه بهؤلاءِ القادةِ صريحاً ، جريئاً ، عالىَ الرأسِ ، يتحدثُ إليهم كما يتحدثُ إلى نظرائِه وأندادِه .. كما أنه لم يكن يسعى إلى هذه اللقاءاتِ بقدرِ سعيِهم إليها ، وحرصِهم عليها ؛ وذلك لشدةِ الخوفِ منه على سلطانِهم وعروشِهم .

كان فى روسيا سنةَ ١٨٨٦ ، وهناك رغِبَ قيصرُ الروسِ فى لقائِه ، فالتقى به ، ولامَه على ما يدعو إليه من المساواةِ بين الفلاحين وحكامهم .. فقال له :

« أعتقدُ يا جلالةَ القيصرِ أنه خيرٌ لعرشِ الملكِ أن يكونَ ملايينُ الرعيةِ أصدقاءَ له ، بدلًا من أن يكونوا أعداءً ، يترقبون الفُرصَ ، ويُكْمِنون(١) فى الصدورِ نيرانَ الحقدِ والكراهيةِ » .

ولقِيَه شاهُ إيرانَ ناصرُ الدين على طريقِ عودتِه من روسيا سنة ١٨٨٩ ، فألحَّ عليه أن يعرجَ على بلادِه ، وعرضَ عليه الوزارة ، فلبَّى مطلبَه ، وتحول إليها ، ولمحه الإيرانيون ، فالتفوا به ، ورأوْا فيه الأمل المنشود(٢) ، وبادر هو يضعُ لهم دستورًا صحيحاً يحقِّقُ المساواةَ بين أبناءِ إيران ، ولكن الشاهَ خافَ على عرشِه ، فدعاه ، وقال له :

ــ أيصحُّ يا حضرةَ السيدِ أن أكونَ ، وأنا شاهنشاه(٣) ، كأحدِ الفلاحين ؟

---

(١) يكمنون : يكتمون ويخفون .
(٢) المنشود : المرجو .
(٣) شاهنشاه : ملك الملوك .

فأجابه :

ـــ اعلم يا حضرةَ الشاهِ أن تاجَك ، وعظمةَ سلطانِك ، وقوائِـمَ عرشِك ـــ ستكونُ بالحكم الدستوريِّ أعظمَ ، وأنفذَ ، وأثبتَ مما هى الآن .. والفلاحُ والعاملُ والصانعُ فى المملكةِ يا حضرةَ الشاهِ أنفعُ من عظمتِك ومن أمرائِك .. لا شك يا عظمةَ السلطانِ أنك رأيتَ وقرأتَ عن أمةٍ استطاعت أن تعيشَ بدونِ أن يكونَ على رأسِها مِلكٌ ، ولكن هل رأيتَ مِلكاً عاشَ بدونِ أمةٍ ؟!

رحلاته فى أنحاء العالم الإسلامى :

وقد سبق طَرَفٌ من الحديثِ عنها ، وسيأتى إلقاءُ مزيدٍ من الأضواءِ على سائرِها[1] .

عيونه فى الوزارات والمصالح :

فقد نظَّم مريديه ، فكان منهم خلايا فى الوزارات ، تتعرفُ دقائقَ شئونِها ، وتنقُلُها إليه ..

وهكذا تعددت وسائلُه فى الكفاح ، وأعانته على نجاح دعوتِه ، وتحقيقِ الكثيرِ من أهدافه .

(١) سائرها : باقيها .

(٦)

رحلته إلى مِصرَ وكفاحه بها

تركنا الشيخَ الأفغانىَّ ، وقد وضعه الإنجليزُ على ظهر سفينةٍ تُبْحِرُ به بعيدًا عن الهندِ وأفغانستانَ وإيرانَ ، ورأيناه على ظَهرِ السفينة يفكرُ فى حالِ المسلمين ، وما يصلحُ به أمْرُهم بعد ما أصابهم من ضياع .

ومرَّ بذهنِه إقصاءُ أسرتِه عن أراضيها ، وخروجُه من وطنِه خائفًا يترقَّبُ بعد هزيمةِ صديقِه محمد أعظم خان ، وترحيلهُ المفاجئ من الهندِ بأيدى الإنجليز ، فحزِن لما أصابَه فى نفسهِ وفى الإسلامِ والمسلمين ، ولكن كان أعظمَ من أن يتخاذلَ ، وأقوى من أن تتسرَّبَ إلى قلبه شائبةٌ[١] من شوائبِ اليَأس ، بل لعل هذه المعاناةَ صهرته ، وزادته قوةً وإصرارًا وصلابة .

وفجأة سرى[٢] شيء غريبٌ من الأملِ إلى نفسِهِ .. لقد ألقته السفينةُ على شاطِئ السويس ، فعرف أنه بمصرَ التى أحبَّها ؛ مما سمِعَ وقرأ عنها وعن أهلِها ، وأحسَّ أن القدرَ ساقه إليها ؛ لأنه أرادَ النجاحَ لدعوته .

ولم يضيع الشيخُ وقتًا ، بل بادر بالذهابِ إلى القاهرة ، وعرَّج على الأزهر ، أعظم وأعرق معهد إسلامىٍّ على عهده ، وهناك التقى ببعضِ طلابِهِ ، فعرفوه بالشيخ محمد عبده ، وكان هذا الشيخُ أنجب مَنْ فهِموا الأفغانىَّ ، فصاحبوه ، وتتلمذوا على يدِهِ ، وساعدوه فى نشرِ دعوته ، وارتبط تاريخُ كلٍّ منهما بصاحبِهِ ..

وسمع شيوخُ الأزهرِ بالعالِمِ القادم ، فأقبلوا عليه ، وسمِعوا منه ،

---

(١) شائبة : شيء يخالط غيره . (٢) سرى : سار .

واختلفوا فيه ، فقبِله بعضٌ منهم ، واعتزله أكثرُهم ، وفى ذلك يقول تلميذُه الشيخ محمد عبده :

« أخذتُ أتلقَّى عنه بعضَ العلومِ الرياضيةِ والحكميةِ والكلاميةِ ، وأدعو الناسَ إلى التلقِّى عنه ، وأخذ مشايخُ الأزهرِ والجمهورُ من طلبتِه يتقوَّلون[(١)] علينا الأقاويل ... يزعمون أن تلقِّىَ تلك العلومِ قد يُفضِى[(٢)] إلى زعزعةِ العقيدة » .

وكان هذا الموقف طبيعيًّا من الشيخ الأفغانىِّ ومنهم ؛ فهو متفتِّحٌ ، عميقُ الفكرةِ ، واسعُ الأفقِ ، دقيقُ الوعيِ بروح الإسلام وأهدافِه وبالصلةِ القويةِ بين الدينِ والعلمِ ، وهم دونه فى ذلك كلِّه ؛ ولهذا اشتد الصِّدامُ بينه وبينهم ..

وتفادياً للصِّراعِ سافرَ الأفغانىُّ إلى الآستانةِ ، عاصمةِ الخلافةِ الإسلاميةِ كلها ، وذاتِ السيطرةِ والسلطانِ على غيرِها ، فرحَّبَ به الصدرُ الأعظمُ فيها ترحيباً أثارَ غضْبَةَ شيخِ الإسلامِ بها وخوفَه ، فألَّبَ[(٣)] علماءَ الأتراكِ عليه ، وتوسطَ إلى الصدرِ الأعظم فى إقصائِه عنهم ، فأقصاه مجاملةً لهم .

وكان الأفغانىُّ قد تقابلَ ، فى أثناءِ إقامتِه بالآستانة ، هو ورياض باشا رئيسُ الوزارةِ المصرية ، وعرف رياض شيئاً عن علمِ الرجلِ وفضلِه وتجنِّىَ الشيوخِ عليه ، فرحب بعودتِه إلى مصر .

وعاد الشيخُ إليها هذه المرةَ فى مارس سنة ١٨٧١ ، وأملُه قوىٌّ فيها ، وفى أهلِها ، وفى الصلةِ التى نشأت بينه وبين رئيسِ وزرائها . وتلقاه رياض ، فأحسن لقاءَه ، وجعل له راتباً شهريا ، قدرُه عشرةُ جنيهات ، وخصصَ به مسكناً صالحا ، ولم يكلفه لقاءَ ذلك أكثر من أن يدرِّسَ لطلبة العلمِ وينورَهم ..

(١) يتقولون علينا : يختلقون الأكاذيب علينا .
(٢) يفضى : يؤدى .   (٣) ألب : أثار .

وليس ببعيدٍ أنه أراد أن يستعينَ بتفتحِه على جمودِ بعض الشيوخ وتعنُّتِهم[١] .. وبذلك اطمأنَّ الشيخُ وتفرغَ لنشرِ دعوتِه ، وقضى فى مصرَ ثمانىَ سنواتٍ ، امتدت حتى سنةِ ١٨٧٢ ، وكانت أخصبَ ، وأثرَى ، وأملأَ سنوات عمرِه بالخيرِ والبركةِ على دعوتِه الإصلاحيةِ .

فى هذه السنواتِ قوِىَ نضالُه ، وتعددت وسائلُ كفاحه ، فكان منها مدرستُه المنزليةُ أو النظاميةُ ، بحارةِ اليهود ، بخان الخليلى ، قربَ الأزهرِ والمسجدِ الحسينىِّ ، وكانت أبوابُ هذه المدرسةِ مفتحةً طُوالَ النهارِ لدراسةِ كتبِ العقيدةِ والحكمةِ ، ولتنويرِ عقولِ الطلابِ وتنشئتِهم على التفكيرِ الذاتىِّ الصحيحِ ، البعيدِ عن المحاكاةِ العمياءِ ، والمتابعةِ بحقٍّ وبغيرِ حق ، وقد تهافتوا عليها ، وتضاعفت أعدادُهم بها ، كما كان منها مدرستُه الحرةُ أو غيرُ النظامية ، بقهوةِ « البوستة » ، على بُعدِ خُطواتٍ من حديقةِ الأزبكية ، وكان يَؤُمُّها[٢] غيرُ قليلٍ من صفوةِ المثقفين وعِليَةِ القومِ ، كالبارودىِّ ، وعبدِ السلامِ المويلحى ، وإبراهيمَ المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، وسعدِ زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، وإبراهيمَ اللقانى ، وعلى مظهر ، وأبى الوفا القونىِّ ، وسليم نقاش ، وأديب إسحاق ، وعبدِ الله النديم ، ويعقوب صَنوع .. وغيرِهم ، وغيرِهم .

ونظرةٌ واحدةٌ إلى هذه الأسماءِ تدلُّنا على سماحةِ الشيخِ من ناحيةٍ ورحابةِ أفقِه من ناحيةٍ أخرى ؛ فقد كان من تلاميذِه المصرىُّ وغيرُ المصرى ، وكان منهم المسلمُ ، ومنهم المسيحىُّ كأديب إسحاق ، واليهودىُّ كيعقوب صَنوع ، وكانوا من مهنٍ وثقافاتٍ ودراساتٍ مختلفةٍ ، وكان على الشيخ أن يقنِعَهم بعلمِه ، ويشبعَهم بمعارفِه ؛ حتى لا تبقى لواحدٍ منهم شبهةٌ فى مسألةٍ من المسائل ، وأن يُلهبَ فيهم الحماسةَ ليطالبوا بالدستورِ والإصلاحِ الشاملِ

(١) تعنتهم : تشددهم وجمودهم . (٢) يؤمها : يقصد إليها .

فى الحياةِ السياسيةِ والاجتماعية ، ولينقِذوا الشعبَ مما تردَّى[1] فيه من فقرٍ وجهلٍ وتخلُّف ... ثم كانَ من مدارسِه مدرستُه المتنقلةُ التى تكون حيثُما يكونُ ، وتتحركُ كيفما يتحرك ... وصف أحدُ عارفيه مدرستَه الحرة ، قال :

« إذا أقبلَ الليلُ خرج متوكئاً على عصاه إلى قهوةِ « البوستة » قربَ الأزبكية ، فيجلسُ فى صدرِ فئةٍ تتألفُ حولَه على هيئةِ نصفِ دائرة ، ينتظمُ فى سِمْطِها[2] اللغويُّ ، والشاعرُ ، والمنطقيُّ ، والطبيبُ ، والكيماويُّ ، والتاريخىُّ ، والجغرافىُّ ، والمهندسُ ، والطبيعىُّ ، فيتسابقون فى إلقاءِ أدقِّ المسائلِ عليه ، فيحُلُّ عُقَدَ إشكالِها ... بلسانٍ عربىٍّ مبينٍ ، لا يتلعثمُ ، ولا يتردَّدُ ، بل يتدفَّقُ كالسيلِ من قريحةٍ لا تعرفُ الكلالَ[3] فيُدهِشُ السامعينَ ، ويُفْحِمُ السائلين ، ويُبْكِمُ المعترضين » .

وصادف كفاحُ الشيخِ والمناضلون معه عهدَ إسماعيلَ بديونِه ، وعبثِه ، ومفاسدِه ، وتدخُّلَ إنجلترا وفرنسا فى عهدِه للإشرافِ على أموالِ مصر ، فوقف هؤلاء المناضلون فى وجهِه ، وشنُّوا عليه حرباً عاتيةً ، فى الجرائدِ التى أنشئوها ، وفى المجلاتِ الهزلية التى أصدروها ، وفى المقالاتِ التى صبُّوا نيرانَها عليه ، وفى الاجتماعاتِ التى نادَوْا فيها بإقامةِ حياةٍ نيابيةٍ صحيحة ، تُحدِّدُ حقوقَ الشعبِ وواجباتِه ، وتكشفُ عما يجبُ أن يكون عليه موقفُه من حاكمِه ، وموقفُ حاكمِه منه .

وقد ترددت أنباءُ هذه المقاومةِ بين المثقفينَ فى القاهرةِ ، وعلى ألسنةِ الناسِ فى مصر ، كما ذاعت خارجَ البلادِ فى تركيا مقرِ الخلافةِ ، وفى غيرِها ، وشاع بين الناس أن القوى الوطنيةَ ستريحُ البلادَ من هذا الطاغية بقتلِه ، وأن الشيخَ

---

(١) تردى فيه : سقط فيه .   (٢) سمط : السمط القلادة .
(٣) الكلال : التعب .

الأفغانىَّ راضٍ عن ذلك ، ولكنَّ الله عجَّلَ بإزاحةِ الطاغيةِ ، فوفَّقَ السلطانَ ، فى السادسِ والعشرينَ من يونية سنة ١٨٧٩ ، إلى عزلِ إسماعيل ، وخلَفَه ابنُه توفيق ، فتظاهرَ بحبِّ مصرَ ، والرغبةِ فى إصلاحِ أمورِها وأعطى الشعبَ ما أحبَّ من الوعودِ الخلَّابة(١) ؛ حتى خدعَه وخدَّرَ حماسَته ، فلما ثبتَ فوقَ كرسيِّه خانَه وغدرَ به ، وكان عليه أشدَّ شؤماً من أبيه ؛ لأنه راح يتقرَّبُ من الإنجليز ، ويرتمى شيئاً فشيئاً فى أحضانِهم .

وخافَ خطرَ الشيخِ عليه ، فدعاهُ إلى قصرِ عابدين ، وأخذ يناقشه لعله يخففُ من حدتِه .. قال له :

ــ إنى أحبُّ كلَّ الخيرِ للمصريين ، ويسرُّنى أن أرى بلادِى وأبناءَها فى أعلى درجاتِ الرقىِّ والفلاحِ ، ولكن ...

رفع الشيخُ بصرَه فى دهشةٍ ، ينتظرُ ما بعد لكن .. واستمر أميرُ مصرَ ، فقال :

ــ ... لكن مع الأسف . إن أكثرَ الشعبِ جاهلٌ خامل ، لا يصلُحُ أن يُلقَى عليه ما تُلْقونه من الدروسِ والأقوالِ المهيجةِ ، فيُلقوا أنفسَهم والبلادَ فى التهلُكَةِ(٢) .

أجاب الشيخُ فى صراحةٍ وجرأة :

ــ ليسْمَحْ لى سموُّ أميرِ البلاد أن أقولَ بحريةٍ وإخلاص : إن الشعبَ المصرىَّ كسائرِ الشعوبِ ، لا يخلو من وجودِ الخاملِ والجاهلِ بين أفرادِه ، ولكنه غيرُ محرومٍ من وجودِ العالِمِ والعاقلِ ؛ فبالنظرِ الذى تنظرونَ به إلى الشعبِ المصرىِّ وأفرادِه ينظرُ إليكم ، وإن قبلتم نُصحَ هذا المخلصِ ، وأسرعْتُم إلى إشراكِ الأمة فى حكمِ البلاد عن طريقِ الشورى ... يكونُ ذلك أثبتَ لعرشِكم ، وأدومَ لسلطانِكم .

---

(١) الخلابة : الخداعة .　　(٢) التهلكة : الهلاك .

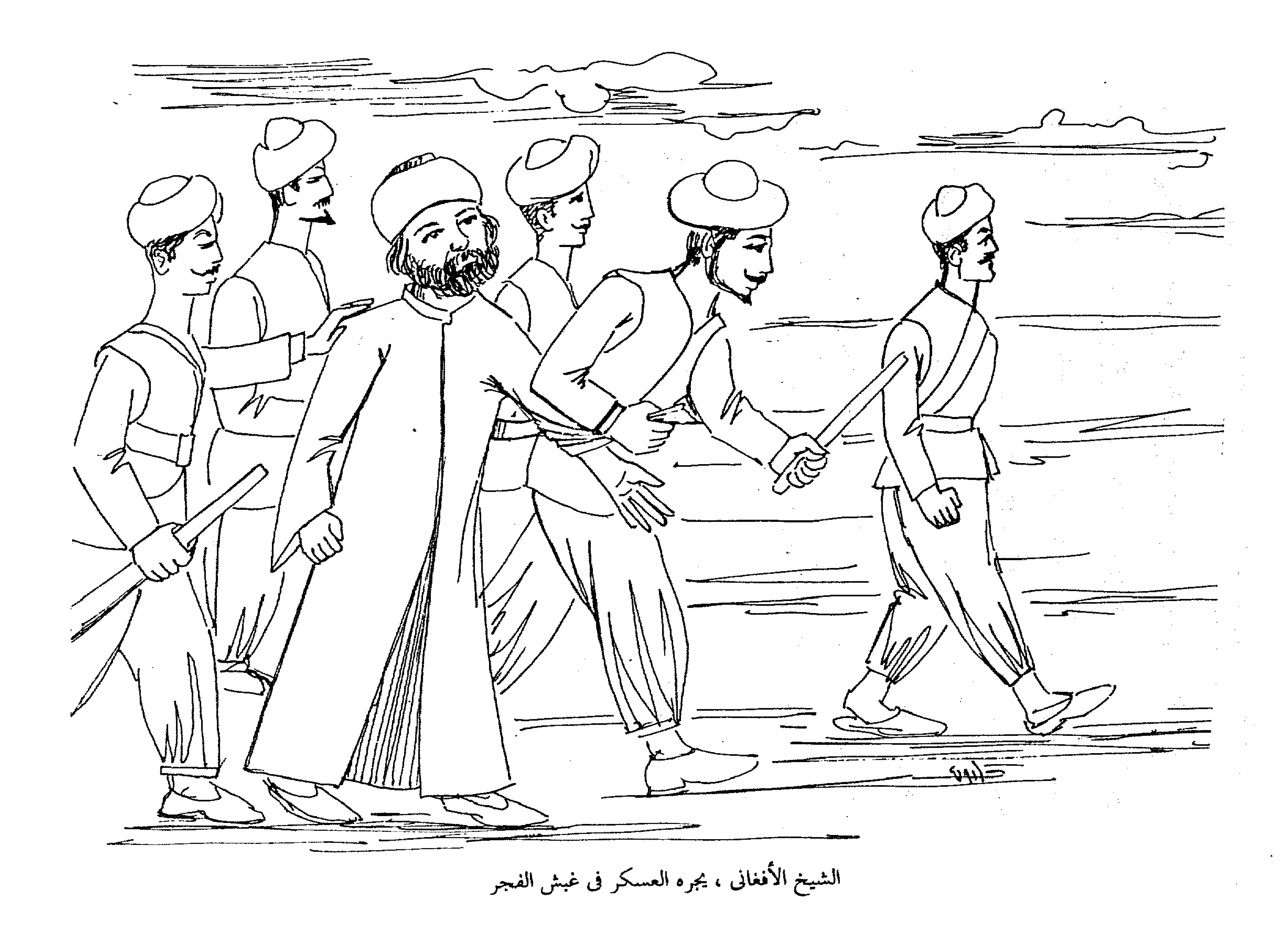
تظاهر توفيق بالسمعِ والاستجابةِ ، ولكنه انطوى على غيظِه وحقدِه ، وأصرَّ على الانتقامِ من الشيخِ ... وفى مطلعِ رمضانَ سنة ١٨٧٩ كان الشيخُ عائداً مع خيوطِ الفجرِ إلى بيتِه ، وقد تفرقَ عنه أصحابُه ، وفجأةً انقضَّ(١) عليه عسكَرُ توفيق ، واقتادوه إلى دار الشرْطةِ ، ثم حُمِلَ ومعه تابعُه « أبو تراب » إلى محطةِ السكةِ الحديدية ، حيث نُقِلا إلى السويس ، ومنها إلى الهندِ على ظهرِ إحدى البواخر .

وظن توفيق وأصدقاؤه الإنجليزُ أنهم أنقذوا مصر من خطرِ الشيخ ، وأيقن هو أنه حقق رسالتَه فيها ؛ فقد وضحت دعوتُه بها ، وانتشرت بين العامةِ والخاصةِ ، وأصبح لها روَّادٌ من بعده ، يحملون رايتَها ويبشرون بها ، وكان كل ما كسبه القصرُ وسادتُه الإنجليز أنهم أثاروا غضْبةَ الشعبِ عليهم ؛ حتى بات معروفا أن الشيخَ الذى دخلَ مصر طريداً ، وخرج منها طريداً قد ترك بها فَتيلَ(٢) الثورةِ ، وأن هذا الفتيلَ موقوتٌ ، يهدأُ ما يهدأ ، ولكنه ينفجرُ فى الوقت المقدَّرِ له .

---

(١) انقض عليه : هوى وهجم عليه .

(٢) فتيل : المراد حبل الإشعال .



الشيخ الأفغانى ، يجره العسكر فى غبش الفجر

(٧)

كفاحه بعد خروجه من مصر

ركب الشيخُ السفينةَ التى أُعِدَّت لترحيلِه من السويسِ إلى الهند ، وهو رافعُ الرأس ، مشرقُ الوجه ، وضاءُ الجبين ، لا يعرفُ اليأس طريقَه إلى نفسِه ؛ لأنه كان يعرفُ شراسةَ(١) المعركةِ التى يخوضُها ، وما تتطلبُ من كفاحٍ وتضحيات .

وأصبح توفيق مرحاً مزهوًّا بهذا النصرِ الحقيرِ على الشيخ ، داعيةِ الإصلاح ، وزعيم المعارضةِ الشعبية ، ورائدِ الكفاحِ فى سبيلِ إنقاذِ المعذبين المسحوقين .. وطلب إلى الصحافةِ أن تنشرَ نبأً نفيه ، ، وتعلنَ الناسَ بأنه نُفِىَ ؛ « لأنه رئيسُ جمعيةٍ سريةٍ من الشبانِ ذوى الطيش ، مجتمعةٍ على فسادِ الدين والدنيا » .

وتلقت الصحفُ الأمرَ ، فانقسمت على نفسِها ، وكان منها ما جامل الأميرَ فنشرَ الخبرَ ، وما امتنعَ عليه ، وآثَرَ أن يحارَبَ ويعطلَ ، ولا يجارِىَ الأميرَ فى خيانتِه وكذبِه .

وبلغ الشيخُ الهندَ ، ونزلَ بمدينةِ « حيدر اباد » ، حيث كان تحت رَقابةِ الإنجليز ، وحيث فُرِضَ عليه « ألا يشتركَ فى عملٍ أو نشاطٍ مما يجرى فى البلادِ » ، فأقام فى الدارِ التى أُعِدَّت له ، لا يخرجُ منها ، ولكنه ، مع اعتقالِه فيها ، كان بها فى قمةِ العملِ والنشاط .. علِمَ أن الإنجليزَ يدفعونَ بعضَ الزنادقةِ إلى طعنِ الإسلامِ وعقيدتِه ؛ بنشرِ المذاهبِ الإلحاديةِ التى لا تؤمنُ بوجودِ الله تعالى ،

---

(١) شراستها : حدتها وقسوتها .   (٢) مفحمة : مسكتة .

فتناول الشيخُ قلمَه ، وكتبَ بالفارسية رسالةً مُسكِتةً مُفْحِمةً(١) ، عنوانُها : « رسالة فى الردِّ على الدهريين » ، وسُرعانَ ما شاعت هذه الرسالةُ ، ودوَّت فى الهند ، فأراحت المسلمين ، وصفعت الملحدين ومَن وراءَهم من الإنجليز .

واشتعلَ الفتيلُ الذى تركه الشيخُ بمصر ، ففجَّرَ الثورةَ « العرابيَّةَ » التى جاءت أثراً من آثارِ كفاحِه ، وكادت تعصفُ بالقصرِ وأذنابِه الخوَنةِ ، وسادتِه الأجانب ، ولكن تكتلَ هذه القوى مكَّنها من الانتصارِ على الشعب ، وفتحَ الأبوابَ للإنجليزِ ؛ لكى يحتلُّوا البلاد .

واطمأنَّ هؤلاء ، فنقلوا الشيخَ إلى « كلكتا » ، ثم سمحوا له أن يرحلَ منها حيثُ يشاءُ ، ولكن « فى غيرِ بلادِ الشرق » ، فترك الهندَ التى دخلَها للمرةِ الثالثةِ ، وقصدَ إلى « لندن » فى أواخرِ سنة ١٨٨٩ ، وهو يرجو أن يجدَ فيها الحريةَ التى تساعدُه فى نشرِ رسالتِه ، ولكنه لم يجدْ فيها ما يأملُه ، فتحوَّلَ عنها إلى باريس .

وفيها وجد حريةً أوسعَ ، وجوًّا أهدأ ، ومعاملةً أحسن ، فبادرَ بدعوةِ تلميذِه الشيخ « محمد عبده » من مصر إليه ، وقامَ الشيخان بجهدٍ عظيمٍ فى خدمةِ الأمةِ الإسلامية ، فأسسا جمعيةً من مسلمى مصرَ والهندِ وغيرِهم ، سميت « جمعية العروةِ الوثقى » ، وأصدروا جريدةً ، سميت باسم الجمعية ، ظهر العددُ الأولُ منها فى مارسَ سنة ١٨٨٤ .

وحدد الشيخان أحلامَهما وأهدافَهما من هذه الجريدة فى : بعثِ الشرقِ ، وإحياءِ الأملِ فى نفوسِ أبنائِه ، والدفاعِ عن حقوقِه المغتصبة ، وتوعيتِه بواجبِه نحوَ الإصلاحِ الدينىِّ والسياسىِّ والاجتماعىِّ ، وتعريفِه بالتياراتِ العالميةِ ، ولا سيما ما يمسُّ حياته منها .

---

(١) مفحمة : مسكتة .

وذاعت الجريدةُ ، فدخلت من أوسعِ الأبوابِ إلى بعض الدولِ الإسلامية ، وتسللت إلى بعضِها ، وحاربَها توفيق ، وقاومَها الإنجليزُ ، ولكن بعدَ أن علا صوتُها فى دنيا الإسلامِ من أقصاها إلى أقصاها ، ولم يكن الشيخُ يكتفى بها ، بل كان يرسل رُسُلَه سرًّا إلى الدولِ الإسلاميةِ ، فى كلِّ ما يعنُّ له من عظائمِ الأمور .

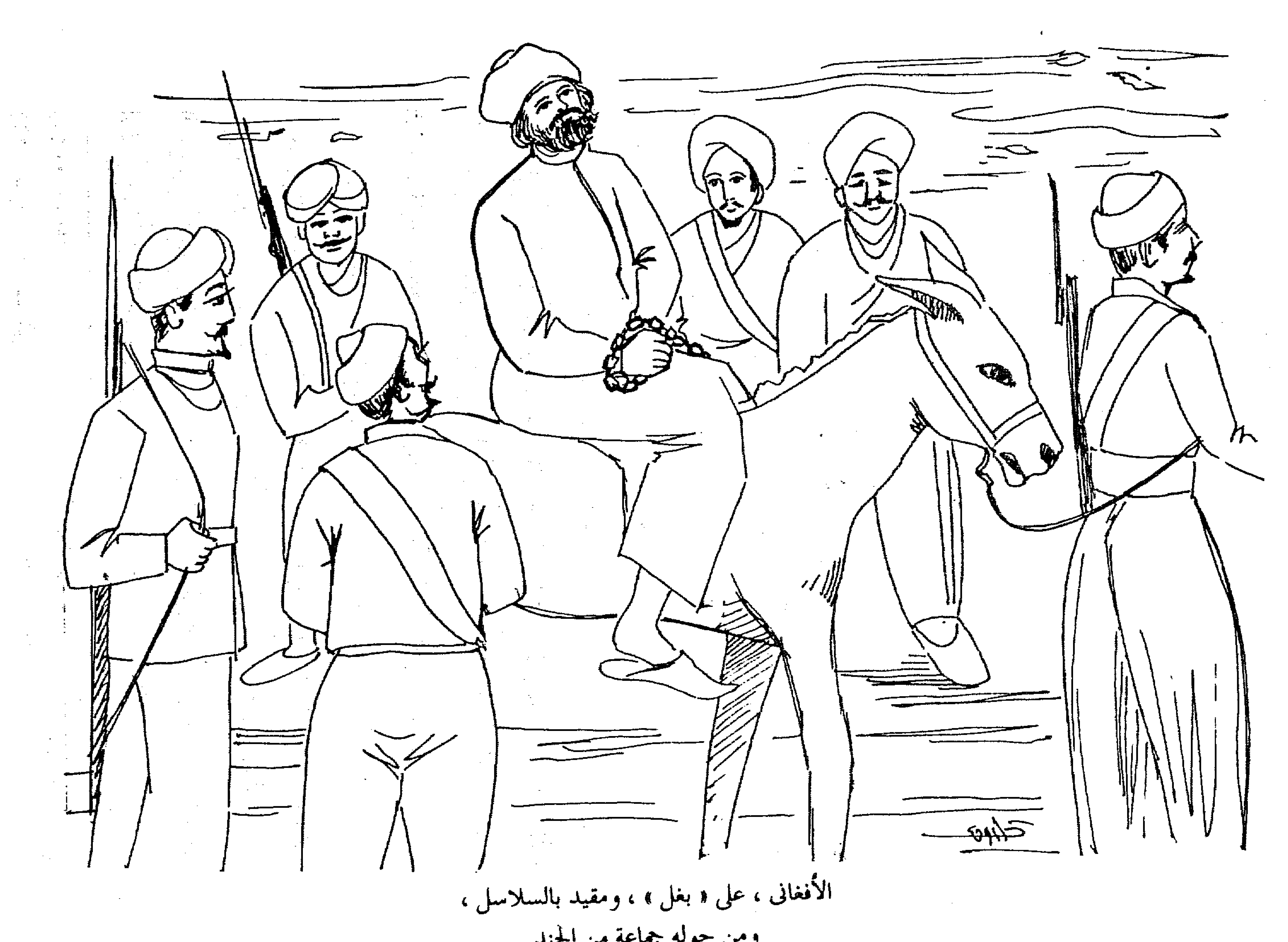
خافت إنجلترا سطوةَ الشيخ وسلطانَه على النفوس ، فعدلت عن أسلوبِ الإرهابِ ، ولجأت إلى أسلوبِ الخداع ، وعرضت عليه عرشَ السودانِ ، على أن ينقِذَه من ثورةِ المهدى به عليها ، فسخِر[1] الشيخُ منها ، وأجابها بقولِه : « إن السودانَ ليس مِلكاً لبريطانيا حتى تتصرفَ فيه » .

اشتد سُخْطُها عليه ، فجدَّتْ فى محاربَةِ جريدَتِهِ ؛ حتى اضطُرت إلى التوقفِ والاحتجاب ، ولكن بعد أن أحسنت الدفاعَ عن الإسلامِ وحضارتِه وأمجادِ أبنائِه ، ونقلت دعوته من قطرٍ كمصر إلى أنحاءِ العالَمِ شرقِيِّه وغربيِّه ، وخلقت جيلًا من المتنورين المسلمين العربِ وغير العربِ ، استيقظت فيه الروحُ الإسلاميةُ ، ونمت فيه أحاسيسُ الوطنية ، فصارت شعلًا[2] متأجِّجةً فجرت ثوراتِ التحريرِ فى كلِّ مكان .

وبعد احتجابِ « العروة الوثقى » حوَّل الشيخُ وجهَه إلى الشرق ، وعنَّ له[3] أن يذهبَ إلى الحجاز ، ولكنَّ ناصرَ الدين شاه إيران دعاه إلى بلادِه ، وبذل له أجملَ الوعودِ ، فاستجابَ ، وتحولَ إليها . وبرَّ الشاهُ بوعدِه ، فعيَّنه وزيراً للحربية ، وربما كان الذى دفعه إلى ذلك إعجابَه بالرجلِ من ناحيةٍ ، ورغبتَه فى أن يكون لسانَ دعوةٍ له من ناحيةٍ أخرى .

وفى إيرانَ تقلدَ الشيخُ منصِبَه الجديد ، وأكبَّ على عملِه ، فحاولَ إصلاحَ

(١) سخر : استهزأ . (٢) شعلا : جمع شعلة ، وهى القطعة المتوقدة من النار .
(٣) عنَّ له : عرض له .



الأفغانى ، على « بغل » ، ومقيد بالسلاسل ،
ومن حوله جماعة من الجند

ما فسدَ من الأمر ، غير أن الشاهَ خافَ ، فتنكَّرَ له ، فبادرَ الشيخُ بمغادرةِ بلادِه ، وتركها بعد أن صحت من نومِها ، وعرفت واجبَها نحو الوقوفِ فى وجهِ حكامِها المستبدين .. وذهب إلى روسيا ، فقضى بها ثلاثَ سنواتٍ ، بينَ سنةِ ١٨٨٦ وسنة ١٨٨٩ ، وفيها عمِل على إصلاحِ حال المسلمين الروس ، وحاول أن يستعين بها على الإنجليز ، أعدائِها وأعداءِ المسلمين ، ولكن تبين له أن الاستعمارَ هو الاستعمار ، وأن القيصرَ هو الشاهُ والشاهَ هو القيصر ، فعاد إلى أُوْرُبَّةَ ، ومرَّ بألمانيا ، وهناك التقى مرَّةً ثانيةً بالشاهِ ناصر الدين ، فتودَّد الشاهُ إليه ، وطيَّبَ خاطرَه ، وألحَّ فى دعوتِه إلى بلادِه .

قَبِلَ الشيخُ الدعوةَ بعد جهدٍ .. ودخلَها ، فالتفَّ به أهلُها ، وداعَبَتهم الآمالُ فى أن يظفروا بالدستورِ على يدِهِ ، وانطلق هو يعملُ بجدٍّ لكى يصدرَه ، لكن المخاوفَ أثارت غضبَ الشاهِ ، فعزم على الانتقام منه .

أحس الشيخُ بما يدورُ فى نفسِ الشاهِ ، فترك له العاصمةَ « طهران » ، وأوى إلى « مشهد » فى إيران ، يقدِّسُه أهلُها ، ولا يعتدى أحدهم فيه على غيره .

وظنَّ أنه بذلك أصبح آمناً على نفسِه ، قادراً على أن يطببَ جسمَه الذى داخلَه المرض ، وهدَه ، ولكن خابَ ظنُّه ؛ فقد هجمَ عليه خمسُمائةٍ من جنودِ الشاه ، فقبضوا عليه ، وجروه فى غير رحمةٍ ولا هوادةٍ .. يقول :

« سحبونى على الثلجِ إلى دارِ الحكومةِ ، بهوانٍ(١) وصغارٍ وفضيحةٍ ، لا يمكن أن يُتَصوَّرُ دونَها فى الشناعة .. ثم حملنى زبانيةُ الشاهِ ، وأنا مريضٌ ، على برذَوْنٍ(٢) ، مسلسَلًا ، فى فصل الشتاءِ وتراكُمِ الثلوج والرياحِ الزمهريرة(٣) ، وساقتنى جحفلةٌ(٤) من الفرسانِ إلى « خانقين » ... ومنها غادر الشيخُ إيرانَ إلى البصرة .

---

(١) هوان : ذلة .

(٢) برذَوْن : بغل .

(٢) الزمهريرة : القاسية البرد .

(٤) جحفلة : جماعة .

(٨)
رحلة الموت

نزل الشيخُ بالبصرة ، فأقام بها سبعةَ أشهرٍ ، يطبِّبُ نفسَه ، ويشِنُّ على الشاهِ حرباً لا تتوقَّفُ ولا تفتُرُ ، ثم سافر إلى « لندن » ؛ ليزيدَ من ضراوةِ[1] هذه الحربِ عليه ، ومن تعريَتِه أمامَ أصدقائِه الإنجليز ؛ واشترك لذلك فى صحيفةٍ شهرية ، سُمِّيت باسم « ضياء الخافقين » ، سنة ١٨٩٢ . وفى هذه الصحيفةِ سلق الشاهَ بمقالاتِه ، وفضحَه فى سياستِه وإدارتِه واقتصادِه ؛ حتى خاف ، واشتدَّ رُعبُه ، واستنجد بالسلطانِ عبد الحميد ، خليفةِ المسلمين فى تركيا أن يكفَّ الشيخَ عنه .

دعا السلطانُ الشيخَ إلى « الآستانةِ » مقرِّ الخلافةِ ، وقرَّبه إليه ، وأجرى عليه راتباً شهريا قدرُه خمسة وسبعون جنيها ، وخصصَ به قصراً جميلًا ، ومجموعةً من الخدمِ والحشمِ ، منهم من يخدُمُه ، ومنهم من أُقيم حجاسوساً عليه .

وفى تركيا أقام الأفغانيُّ ، لكنه لم يغفُل لحظةً عن النهوضِ برسالتِه ، بل انطلق يدعو إلى الشورى ، وإصلاحِ حالِ الأمة ، وتكوين جبهةٍ إسلاميةٍ قويةٍ ، تقفُ فِي وجهِ الغرب ، وتردُّ عليه سهامَه المسمومة القتَّالة ..

فخاف السلطانُ أن يثيرَ الناسَ عليه ، وشاعَ أن شاهَ إيرانِ قُتل بيد رجلٍ من مريدى الشيخِ ، وأن هذا القاتلَ قال وهو يطعَنُه : « خذها من يدِ جمال الدين » ، فازدادَ خوفُ السلطانِ على نفسِه وحياتِه ، وأدرك الشيخُ ذلك ، ولعله فكرَ فى النجاةِ من يدِه ، ولكن الموتَ كان يدنو منه ؛ فقد أصيب بالسرطان فى حلقِه ،

---

(١) ضراوة : شدة وقسوة .

ومات فى التاسعِ من مارس سنة ١٨٩٧ ، ورحلَ عن الدنيا وقد تعددت الأقاويلُ فى سبب موتِه ، قيل : إنه مات من جراءِ مرضِه ، وقيل : إن جراحةً أجريتْ له لتقتلَه ، كما قيل : إن السُّمَّ دُسَّ إليه من السلطانِ أو من أحدِ أذنابِه .

وشيِّعت جنازَتُه فى غيرِ احتفالٍ كبيرٍ به ، واختفى لحدُه بين اللحود ، ولكن مستشرقاً أمريكيًّا عرف له فضلَه ، وكفاحَه ، ومنزلتَه بين عظماءِ التاريخ ، فبحثَ وبحثَ ، حتى كشفَ عنه سنة ١٩٢٦ ، وأقام فوقَه قبراً كتب على أحدِ جدرانِه : « أنشأ هذا المزار الصديقُ الحميمُ للمسلمين فى أنحاءِ الأرض العالِمُ الخيِّرُ الأمريكانيُّ المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ ... وأخيرا نقلت الحكومة الأفغانية رفاته إلى وطنه سنةَ ١٩٤٤

ختام فى كلمات

عاش جمالُ الدين الأفغانىُّ ، بعد أن أتمَّ دراستَه ، نحواً من أربعين سنة ، قضى منها بضعَ سنواتٍ فى وطنِه أفغانستان ، وقضى سائرَها مرتحلًا متنقلًا مناضلًا عن الإسلامِ والمسلمين ، فى بلادِهم وفى غيرِها من بلادِ أُوْرُبَّة والشرق الأقصى ..

وشملت رحلتُه الطويلة أو رِحلاتُه الدائبةُ خارجَ وطنِه ، الهندَ ، والجزيرةَ العربية ، ومصرَ ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيرانَ ، وتركيا ، وغيرها ، وقد ارتحلَ إلى بعضِها مرةً ، كما ارتحلَ إلى بعضِها أكثرَ من مرة .. ولم يعرِفْ فى رحلةٍ من هذه الرحلاتِ طعمَ الراحةِ أو الاسترخاء ؛ بل كان شعلةً متَّقِدةً من النشاط ، يناضلُ بكل قواه ؛ ليوقظ المسلمينَ ، ويدفعَهُم إلى الجهادِ فى سبيلِ دينهم وحقوقهم المسلوبة المضيَّعة .

ونجح كفاحُ الشيخِ فى عالمٍ يسودُه الظلامُ ، ويُرهِقُه[1] الفقرُ والجهْلُ والتخلُّفُ ، ويسارعُ الاستعمارُ ليلتَهِمَ أراضيَه .. نجح كفاحُه ، فأيقظ هذا العالَمَ ، وحركه لكى يخوضَ معاركَ التحرير التى ردت عليه حقوقَه ، وكتبت له وجوداً أعزَّ وأكرمَ فى عصرنا الحديث .

وحياة الأفغانىِّ كلُّها دروس :

- فهى تعلِّم كلَّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن يعرفَ حقَّ ربِّه ووطنِه عليه ، ويعيشَ لهما قبلَ أن يعيشَ لِنفسِه ، ويعملَ لها .. بل إن جمالَ الدين الأفغانىَّ سما فوقَ هذه المرتبةِ ، فمنحهما كلَّ فكرِه وجهدِه ووقتِه ، وكل ما يملكُ من قوًى وقُدرات .

---

(١) يرهقه : يتعبه .

ـ وتعلِّمُه أن يكون جريئاً جسوراً[١]، يستصغِرُ العظائمَ، ويقتحمُها[٢]، ولا يقفَ عند حافَتِها[٣] مرتعداً، يقتله الخوفُ والوهمُ قبل أن يجرِّبَها، ويخوضَ غمارها.

ـ وتنشئه على العزَّةِ، وقوةِ الإرادةِ، وعدمِ التراجعِ أو اليأسِ أمامَ الصعابِ التى تدفعُ النفوسَ الصغيرةَ إلى التخاذُلِ وإلى حياةِ الذلِّ والهوانِ.

ـ وتربيه تربيةً دينيةً متفتحةً، يفهمُ بها روحَ دينه، وأهدافَه، ومراميَه البعيدةَ النبيلة، ويبعدُ بها عن التعصبِ، والتحجرِ، والمحاكاة الجامدةِ العمياء.

ـ وتسمو به فوقَ المغرياتِ التى يسيلُ لها لُعابُ الضعفاءِ، وحسبُه أن جمالَ الدينِ الأفغانىَّ لو أرادَ المُلكَ على أن يتركَ دعوتَه ويتخلَّى عن مبادئِهِ، لَظفِرَ به، ولكنه كان أعظم من أن يتَّجرَ بدينِه، وأرفعَ من أن يتنكرَ لدعوتِه.

ـ وتقنِعُه بأن العظيمَ قد يُنفىَ أو يطرَدُ أو يُجَرُّ على الثلجِ أو يُقيَّدَ بسلاسِلِ الحديد، أو .. أو .. ثم يأتى اليومُ الذى تعصفُ فيها الدنيا بمن حاربوه وعذبوه، وترفعُه هو إلى مرتبةِ الأبطالِ والمجاهدين الخالدين.

حقا إن حياتَه تعلِّمنا الكثير والكثير .. إنها كتابٌ حافلٌ بالكنوزِ والصفحاتِ البيضاءِ الناصعةِ، غنىٌّ بالمُثُلِ العليا التى يحتاجُ إليها شبابُنا، وأجيالُنا الصاعدةُ؛ ليهتدوا بها وبأضوائِها على طريقِ العملِ لله، والوطنِ، والأمةِ الإسلامية.

---

(١) جسورا : شديد الجرأة. (٢) يقتحمها : يدخل فيها بالقوة.
(٣) حافتها : طرفها.

رقم الإيداع : ٥٠١٠ ١٩
الترقيم الدولى : ٦ ــ ٠٥٣٩ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة



الثمن ٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه